

فرضية حول الحياة الطيبة



الفكر في ارتقائه لا يلبث أن يتحرّر، فيتسع، فيسمو...

حديثي إليكم يا تي في سياق ما نصبوا إليه جمِيعاً - أفراداً وجماعةً - وهو أن نحيا حياة طيبة: حياة نماء على المرتفق الإنساني نحو الأمثل. مصطلح الحياة الطيبة يرد في القرآن الكريم، قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُرْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَذُخْرُهُ بِيَدِهِ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَذَخْرٌ يَنْدَهُمْ أَجْرٌ هُمْ بِأَدْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل/97)، ويرد في أدبيات أديان وحضارات أخرى في نسق مماثل، وفي جميع الحالات، على ما استطلعت، يرد كهدف سامي جدير بالسعى في سبيل تحقيقه.

الحياة الطيبة لا تعني حياة رفاهية ورخاء، ولا حتى حياة سعيدة بالمعنى الدارج: أي حياة خالية من الأتراح وملينة بالأفراح. هي صميمها تختلف عن مثل ذلك. كييفما تتقلب الظروف المعيشية لصاحبها عبر تقلب صروف الدهر، الحياة الطيبة تبقى في نمطيتها حياة بساطة وقناعة وتواضع، وفي تهذيبها حياة استقامة وعفة ونبيل. وهي حياة أبعد ما تكون عن الخبث والإثم والعدوان، وأقرب ما تكون إلى البر والصلاح والإيمان.

ما أعرضه، إذن، هو، باختصار، فرضية حول الحياة الطيبة، تحديداً: كيف تُحقّق؟ لقد نظرت في هذه الفرضية بإمعان، وأراني لمست أثراً مثرياً من نضحها من خلال اختبار فعلي لمعطاتها عبر عدّة سنوات خلت. الفرضية هي أنّ الفكر في ارتقائه لا يلبث أن يتحرّر، فيتسع، فيسمو. التسامي هنا يكون إلى حيث

تُسفر خبرة الإنسان عن حياة طيبة يحياها على مسار مترافق مفتوح الارتقاء فكراً وسلوكاً ونمط عيش مسار تتحقق عبره عموم إيجابيات الحياة.

ما الفكر، وكيف يكون ارتقاوه شطر حياة طيبة؟

الفكر مُفرَز ذهني، والتفكير حراكه الذي لا يتوقف في يقطة أو نوم، إذ أنّ المخ لا يرکد حراكه إلا بعد أن يفارق الجسم النفسُ الآخر. تفكير اليقطة في أحطه يكون تفكيراً متدنياً، وفي أرقاه يكون تفكيراً ساماً. بين النقيضين يتدرج التفكير عبر تفكير سلبي، تفكير عقيم، تفكير ضروري، وتفكير إيجابي.

لننظر في صنوف التفكير هذه - من أحطها إلى أرقها:

أولاً - التفكير المتدني: وهو ذاك الذي يضر بصاحبته قبل غيره. هو تفكير ينهك البدن ويُشقي النفس. من عناصره السامة: الحسد، الجشع، الحقد، كراهية الآخر، نزعة الانتقام، الظلم، الغرور، الظفريان... هذه ومثيلاتها من مهالك التفكير المتدني تعوق مطلقاً إمكانية الارتقاء في حال مَن يُبتلى بها بجهالة، ثم لا يعمل على التخلص منها برشد.

ثانياً: التفكير السلبي: وهو أقل ضرراً من التفكير المتدني، إلا أنه تفكير يُنظر منه إلى الأمور مُسبقاً بسوداوية قاتمة، شديدة الارتياب في كل صغيرة وكبيرة. مثل هذا التفكير يعوق صاحبه عن الانفتاح على الناس والاستفادة منهم. هو أيضاً يفوّت عليه الاستمتاع ببدائع الطبيعة وألطاف الحياة.

ثالثاً - التفكير العقيم: وهو التفكير الذي لا طائل منه على مسار النماء المعرفي أو التهذيب الخُلقي أو التدبير العملي. من أكثر أمثلته شيوعاً في عصرنا الألعاب المصورية video games. إلى جانب إهدار الوقت والطاقة، هي أيضاً تجر إلى الإدمان عليها، وإلى إضرار بالبدن جراء تكرار إطالة الجلوس.

رابعاً - التفكير الضروري: وهو يكون في مجال الأمور التي يلزم تدبيرها لأجل توفير احتياجات العيش وتنظيمها على أوفق وجه. الأمثل هنا الاقتصاد في الاقتناء والاستهلاك، بحيث يبقى نمط العيش محكماً بما يناسب الاكتفاء. الغرض هنا أن لا يطغى التفكير في إشباع الرغبات من بعد توفير الاحتياجات، فيعيق التوجه نحو النماء المعرفي والتهذيب الخلقي، بل أن يبقى الحذر دائماً من الانسياق وراء رغبات منفلترة لا تُشبع وتقول هل من مزيد.

خامساً - التفكير الإيجابي: وهو نقيس التفكير السلبي. إنه التفكير المنطلق من الثقة والانفتاح، بدل الارتياب. إنه يفتح أمام صاحبه فرص الاستفادة من الناس حينهما توجد، وفرص الاستمتاع بالحياة حينما تناجح. قاعدة التفكير الإيجابي هي أن ثق ونتأكد، بدل أن نرتاب مُسبقاً فنجم.

سادساً - وأخيراً التفكير الرافي، وهو تفكير رحب رفيع، يعلو على جميع ما أوردت من صنوف التفكير. هو ينقل صاحبه إلى وعي أعرض وأصفى لطبيعة الوجود، ولحراك الحياة وتطور الجنس البشري ضمن حراك الحياة. هو تفكير يعي به المرأة ثبات السنن الكونية وحيادها: أنها لا تحابي أو تجافي أحداً، وأنها لا تغش أو تغدر، بل تأخذ مجريها وفق مقتضيات طبيعية موضوعية في جميع الأحوال، لذا هو يطمئن إليها، يعمق فهمه لها، ويوازن نهجه مع سياقاتها، دونما اعتراف أو امتعاض. إنه يرى نفسه كائناً كونياً، في إلفة مع جميع ما يوجد، لذا لا يعادي، ولا يعتدي، ولا يلتجأ لعنف. هو يرى السنن الكونية أصدق إخباراً عن حقائق الوجود من نصوص أي كتاب، لذا يتخذها مرجعية تعلو على كافة المرجعيات. هو يستنير بما يعرف تحقيقاً، ولا يقلق إراء ما لا يعرف. الحيرة لديه حالة صحّية تبعث على الدعوة والتواضع، وتدفع للاستكشاف دونما رهبة أو رعب.

لماذا أهمية التفكير؟

لأن من التفكير تتولد المشاعر. فإذا فكر المرء سلبياً أو إيجابياً تجاه شخص ما، أو قضية ما، تكون شعوره تجاه ذلك الشخص، أو تلك القضية، على شاكلة ما فكر. ثم إن من تزامن المشاعر وتکاثفها يتولد منظور نمطي تصطبغ به جل أفعاله، وإذا تكررت منه ذات الأفعال أصبحت عادات يأتيها دونما تفكير. أخيراً، من العادات ترتسم شخصية المرء، فينظر إليه بما هو عليه من عادات، حميدة أو ذميمة. هكذا تسلسل أثر التفكير في صياغة شخصية كل فرد.

ما هي العوامل التي تؤثر في التفكير؟

هي إجمالاً ثلاثة:

العامل الأول: هو ما يتلقى المرء من ثقافة قومه من مفاهيم وقناعات تستقر في ذهنه مبكراً، وفي الأغلب تبقى صابحة تفكيره عبر لاحق مراحل عمره، إلا إنها ليست عصبة على التغيير أو التعديل إذا ما ووجّهت بمفاهيم وقناعات أرجح حجة بمعيار معرفي ناصع.

العامل الثاني: هو ما يتعرّض له المرء شخصياً من خبرات الحياة، فيتلوّن تفكيره بأثر ما يتعرّض له. هذه بدورها ليست عصبة على التغيير أو التعديل إذا ما تغيرت الظروف في مجرب حياته وساقت له خبرات معايرة لتلك التي كان قد تعرّض لها وتأثّر بها من قبل.

العامل الثالث: هو المنهج الفكري الذي ينشأ عليه المرء. فإن كان منهجاً معرفياً، تطوّر فكره بسلامة وفق صيغ المعرفة التي يتبع بلورتها ويتلقّاها، بانفتاح وبحثيّس معاً، من حراك الاجتهاد المعرفي الإنساني المشترك. وإن كان منهجاً دينياً توقف فكره عند معطيات الدين الذي يدين به. المعطيات الدينية، أيّاً كان الدين، تمنع على التطور أو التعديل خارج منطوق النصوص، لأنّها تأتي مغلقة بقدسيّة لا تمس، ومعضدة بالوعيد والوعيد. بالمحصلة، مفاهيم المنهج الفكري قبلة للتطور في كلّ حين، بينما معتقدات المنهج الديني غالباً ما تكون عصبة على التطور حتى مع اتساع افتقارها إلى سند معرفي.

أعود الآن إلى فرضية هذا الحديث، فرضية الحياة الطيبة، وهي أنّ الفكر في ارتقائه لا يلبث أن يتحرّر، فيتسع، فيسمو.

الفكر كُفرز ذهني هو ما ترتسم به وجهة خبرتنا الحياتية، ارتقاء أو انحداراً على المدرج الحضاري. لقد قيل: كما تفكّر تكون. أمام أي مذاماً إمكانية الارتقاء دون سقف يحدّ، وإمكانية الانحدار إلى حضيض لا قاع له. صدف حكيم حراك الإنسان في ثلاث: تقدّم أو تراجع أو تراوح في المكان، حيث التقدّم كسب، والتراجع خسران، والتراوح غبن. حكيم آخر أخبر عن نفسه ونظرائه بالقول: نحن قوم لا نصبح حيث نرمي، ولا نرمي حيث نصبح، منهاجاً بحراك ارتقائي مستطرد قابل التحقق لدى كلّ ساعٍ مجده.

بمَ يكون ارتقاء الفكر؟

يكون أو لا بنبذ التفكير المتدني، والتفكير السلبي، والتفكير العقيم، وبالعمل بالتفكير الضروري والتفكير الإيجابي. من التفكير الإيجابي يكون انطلاق السعي حتّيناً نحو التفكير الراقي، ليكون الاستبصار بهديه في جميع دروب الحياة، جميع مناهج التوسّع المعرفي، وجميع مسالك التهذيب الخلقي.

يكون ثانياً بتحرّر الفكر من مرجعية العادات والتقاليد، وبالاًهم من ذلك، بالتحرّر من مرجعية المعتقدات الغيبية، تلك التي لا سند لها في صحيح المعرفة المتبلورة من خلال البحث العلمي في كافة

مِيَادِينُ الْحَرَكَ المعرفي الإنساني المستديم.

يكون ثالثاً بالعيش وفق معايير الحياة الطيبة التي تتمثل على صعيد الواقع المعاش في البساطة والقناعة والتواضع، وعلى صعيد الارتكاز الفكري، في الإيمان والاستقامة والنبل.

بتحرر الفكر هكذا، يتسع الأفق المعرفي فيرى المرء كل إرث الإنسانية إرثه، فيغترف من روافده الوفيرة المتنوّعة كل مفید ونفیس. إنّه يرى نفسه كائناً واعياً، وليد الأرض، إنساني الهُويّة، موصولاً بوعيه مع الكون بأسره. بذلك يتجاوز فكره سائر هوبياته المكتسبة ومحدودياتها، ويتساوى شطر مشارف الحكمة المتعالية التي تحدث عنها الحكماء وأخبروا عن فضاءاتها النقية الرحبة، تلك التي لا يطالها دنس ولا تعترى بها سلبية من أي نوع.

خلاصة نظري، إذن، أن لا يبخس أحد قدر نفسه...، أن لا يتراجع ولا يبقى متراوحاً في مكانه في حياة محدودة الأجل، تدعوه في كل لحظة إلى محاولة الارتقاء. بل إنّ عليه أن يصحو على حقيقته الكونية كإنسان، فيرتقي بفكره، واثقاً بأنّ الارتقاء ممكن له ومتاح أمامه، وهو ارتقاء لا يحدّه سقف. إلى ذلك تشير أبيات ثلاثة مشهورة، هي عند البعض تنسب إلى الإمام عليّ (ع)، وسواء أصح التنسب أو لم يصح، فالعبرة تبقى فيما جاء فيها من تنبئه للإنسان وحثّ له على الإفاقة على حقيقة نفسه:

دواوك فيك وما تشعر وداوك منك وما تبصر

وأنت الكتاب المبين الذي بآياته يظهر المضمر

أتحسب أزك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فهمي لهذه الأبيات أنّ العالم الأكبر هو الكون بأسره، وأن انطواء الكون في الإنسان يكون بمعايير تحرّر الإنسان فكراً، فتوسّعه معرفة، فتساميه في الحكمة المتعالية المرصعة بالخلق الكريم. معنى رديفاً أستشفه: أنّ على مرتقى التوسّع المعرفي والتهذيب الخلقي سرعان ما تلوح معايير الحياة الطيبة التي في فضاءاتها النقيّة ومن مشاربها النقيّة يتحقّق في الإنسان خير ما أودع في الإنسان أصلاً ككائن كريم. قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَمَاتِنَاهُمْ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيْرِ بَاتِرٍ وَفَهْلَنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء / 70). ▶